الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن بُلُقّين بن باديس، مؤلِّف هذا الكتاب

(٤) سياسة عبد الله بعد عودته من لِييط: إجراءات دفاعيَّة وسياسيَّة.

٥٥ - تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار ليِّيط. مسلك قَرُور

ولَمَّا وصلت وادى آش، وقد ظهر إلىَّ قبلُ فى ليِّيط من جَفاءِ قَرُور وتخويفِهِ لى، وتهديدى على لسان الأمير، والأمير عند ذلك غافلٌ، غير أنَّنى حَسِبْتُ ذلك من قِبَلِهِ لِمَا رأيْتُ من مكانته عنده. فأدْرَكنى من ذلك رُعْبٌ شديدٌ، وعايَنْتُ مع هذا ما حلَّ بابن رَشيق، وسمِعْتُ وعيدَ ابن القُلَيْعىّ لى، وجفاءَه علىَّ، وإزالة رقبْتى عنه، ما زادنى ذلك جزَعاً، لاسِيمَّا أنَّ الجزْعَ والسوداء مُتَمَكِّنة من نفسى، وأجِدُها فى طباعى؛ كِدْتُ أن أموت غمّاً. ولم أرَ قطّ قبل ذلك ذُلاً ولا كدراً؛ فأنكرتُ الأمــور كلَّها مع السـلطان، على حَسَـبِ ما كان يُكْرِمُنى سَـفْرَةَ بَطَلْيَـوسْ، ورأيتُ ضدَّ ذلك كلِّه؛ وقَرُورٌ يُناصِبُنى العداوة، ويرسـل المشـاوَرين إلى هوانى، ويأمُرُنى فى حال تلك الحرب بأوامر باردة؛ يُريدُ بها إذلالى، ويُظهر إلىَّ فيها التعنيف والتعسُّف.

فلَمَّـا دخل نَظَرى، أراد إصْلاحَ ما أفسـد معى. فعَلِمْتُ أنَّ ذلك ليـس لنيَّةٍ صَلُحَتْ، بل لحاجـةٍ عَرَضَـتْ ودَفَعَـتْ إليها ضَرُورَةٌ من قِبَـل الاجتياز علىَّ. ولأجْـل ذلك، قال لى على لســان الأمير فى خَبَر أخى ماقال؛ وتبيَّن لى أنه، لو كان ذلك من عند الأمير، لم يطلُبْ قَرُورٌ منِّــى عليها رشــوةً. فإنَّه مع ذلك لم يُخَلِّنى من مُؤْنَتِهَا، وعمِـل لى حُجَّةً فى دَفع ضَرَر أخى عنِّـى، وأخَذَ مِـنِّى عليها ألف دينار مُرابطيَّةً، لم أتَجَـرَّأ قطُّ على ذِكرها مدَّةَ حياته،.. لئلا يطْلُبَنى عند الأمير؛ ثُمَّ لم تَنْفصِل ساعةً أن انصرَف، وطَلَبَ لرَبيبه خمسمائة دينار؛ فأعطيتُها له، وكذلك كلَّ مايَطْلُبُ بإمْرةٍ وتَهدُّدٍ، مع قلَّة رَحمَته ورفقِهِ، *[ق ٤٧ أ] وخشـونة لفظه. ثمَّ أعطيتُه فى غرناطة ألفَ دينـار أُخْـرَى بـاسْـم كسـوةَ خيْلِهِ. وأمَّا الذى صار إليه فى سفْرَة بَطَلْيَـوْس ومُدَّة كَونِهِ على لِيِّيط مع الرُّسُـل، فأكْثَرُ مـن أن يُحصَى؛ وهو فى ذلك كُلِّه لايزداد إلاَّ نفاراً واستكباراً. ومثل هذه الواسطة تُفْسِدُ على الرئيس كثيراً، وتُبغض إليه جماعةً.

(أرسـل فـىَّ) أميرُ المسلمين، وأنا بمِكْناسَـة؛ فسـألنى عمَّا صار إلى قَـرُور من قِبَلى، فروَيــتُ الأمرَ بأحزَمَ ما يمكن، وقلتُ فى نفْسِــى: «إن أعْلَمْتُه بذلك، وهو على حال التمكين عنــده، فرُبَّما أخرجهُ كتابى عليه. وتقرَّعه به؛ ثمَّ اسـتقرَّهُ علــى مَرْتَبَتِه؛ فيكون حتْفى على يدَيــه؛ ولــو أنَّــى نأمَن مَكْـره، لأعْلَمْتُه بالحال، أوْ رُبَّمـا يَقع الكتابُ إلى يــد قَرُور من غير

تعمُّد، والغَـرَر لايدخلـه إلاّ أهْوَج، وكثيرٌ من الحقّ يجبُ تركُه، (وفيه فائدةٌ) بصاحبه، فلم يَسَـعنى أن أقولَ في جوابى للسـطان إنّه لم يَصِرْ إلىّ (بغير رشوة)، فيُكَذِّبُنى، إذ كان يعلم بلا شـكٍ أنّنا لم نُخلِه من ذلك... الدفع التى أعلمنى رُسُـلى. وصَحَّ عندى أنَّ قَرُورًا .... حيث يصدِّقنى، ولا يقع قَرور عنده فى ....»[1].

٥٦ - بعض المؤامرات وتخاذل ابن القَلَيْعىَ

(أمّا أخونا تَميمٌ، صاحِبُ مالَقة) * [ق ٤٧ ب] فإنه أَرْسَـل إلى القاضى ابن سَـهلْ خمسين مِثْقالاً، يستعطفه على القيام علينا بالحُجَّة مَعَهُ فردَّها إليه ابنُ سَهلْ المذكور، وتَنَزَّهَ عن ذلك.

وقـال لى ابـنُ القَلَيْعىّ: «هذا وقتُ اقتراضك لهذا الرجُل، بـأن تكتُبَ إليه، وتَعِدَه بالقضاءِ عند انصرافك، وهو يسـمح في قصّة أخيك، على أن تجعلنـى معه فى أحكامه. فإذا أَلْصَقْتنى به، رَأيتَ عجائبَ مِنْ تأتّى الأمور على مرغوبك عند المُرابطين وفى بلادك، فإنّك، لو شئتَ أن تأخُذَ من أحَدٍ دِرْهَماً بغير الناموس، لَسَمُجَ عند الناس، وإذا أخذتَ ألْفًا على وَجْه الحقّ، حلّ لك أخْذُهُ، ولم يسْتَبْشِعْهُ أحَدٌ. ولا أجدُ أحَداً (ينفع لك) مثل هذا الرجل!» ولم يُبارِحْنى حتّى دفعتُ إليه بخط يدى رُقْعَةً تتضمَّن له القضاءَ، ومايترتَّب له عليه من مُسانَهَةٍ ومُشاهَرةٍ.

ورأيـتُ إجابتـه إلى ذلك صلاحاً بى وخطأً بأخى، ولِمَا تُوجِبُه السياسـة من مسايَرَته ومُداراتـه علـى تلك الحال. (وكنتُ أظُنُّ أنّه) قد حرص على الأمر والنَّهْى، ولا أراه يَبْتَدِئُ إلاّ بى، مالم..... وفى هذا فسادُ مُلْكى وخَلْعى، ويقدِّر على ذلك..........[2].

«.... * [ق ٤٨ أ] وبـك واثـقٌ غير أنّك قد جَعَلْـتَ لى بقولك هذا من الحرص على هذا المال ما أريد أن تعلمنى مِمَّن يُقْبَض!» فإنّى لا أكاد أن أُصَدِّقَه، لاحتياجى إلى مانَحْنُ بسبيله من النفقات، وإقامةِ هذا الجيش كلّ عام.

فجعل يُسَـمِّى لى أقوامًا لايعشـرهم فى الخير والفضل، وقدّم ذِكْـر صاحِبِ الأحْبَاس ابنِ سَـلْمُون، وتسـبَّبَ إليه برسـم الأحْبَاس، وغَيْرهم ممَّن لم يَبْلَ منهـم إلّا الطاعة والنصيحة. فقلـتُ فى نفسـى: «الله أكبر! ماقصد هذا إلا إلى هذه الحاشـية لنا ولآبائنـا، إلا وهو يُريد إفرادناً دونهم، ليتمكّن بما شاءَ، ولا نَجِد صديقًا نستريح إليه، مع ماتبيَّن من إنْفاسِهِ، وحدَّةِ مقاطِعه، وأغْراضِه القاتِلة!»

والعَيْن تُبْصُرُ فى عَيْنَـىْ مُحَدِّثها   إن كانَ مِنْ حِزْبِها أو مِنْ أعادِيها

وجعل يَطْلُب بنى السُّنْدى والكَتَبَة وغَيْرَهم ممَّن قد اصطَنَعْناه (ونأمَن) أمانته، ثمَّ قال لى: «كلّ مـا رأيتَ من السـلطان فى لِبِّيـط .... كان متفلّتًا أن يجعل لك مَجْلِسًـا ولَغيْرك تستـ..... وأنت على سَعَةٍ، وأفعل شيئاً تبطل به حجّتُهُ (عليك).......[3].

(١) خرم نحو نصف صفحة فى الأصل.

(٢) خرم نحو نصف صفحة من الأصل.

(٣) خرم نحو نصف صفحة فى الأصل.

* [ق ٤٨ ب]...... كُنْتم عليهـا من التَّرَقُّب والإنـذار بالعيال نفْثة حاقد.» وكان هذا ابن القُلَيْعي مخمولاً في أيَّام الشـيخ جدِّنا - رحمه الله -؛ وكان لايدَعه في المدينة، ويأمره بسكْنَى ضَيْعَتِه، لما كان يَرَى من شرِّه وقدرته على الدواخِل. فلما ظهر أمر المرابطين، اصطنع إلى مُؤَمِّل وغَيْرِه، ووُسِـم لى بسِـمَة الخير والقدرة على الكلام، وأنَّه لا أحَدٌ يقدر على استمالةِ المرابطين على ماهو عليه. فوجَّهْتُه رسـولاً، وهو في ذلك يعمل لنفسِـه، ويسـعى في هلاكي فـي الباطِـن، وينفث بذلك، على ما صحَّ عندى، ويقول: «والله! لأُبْلِغَنَّ حَفِيدَ باديس الطينةَ السوداءَ، ولأُشَوِّقه إلى دِرْهَم ينفقه، [وذلك] على صنيع جدِّه بى وبغيرى!» .

وأخْبَرَنى أبو بكر بن مُسَـكَّن أنه (كان كتب) إلى أمير المسـلمين في أوَّل سَفَرِه معه، ولقى في الطريق خَبَر دخوله [الأندلُس]، وقال: «هذا على رَغْم أنوف الفَسَقة سلاطين الأندلُس!» فقال أبو بكر بن مُسَكَّن: «وتُخَلِّطُ معهم سُلْطَانَك؟ » فقال: «نَعَم! وهو الـمُقَدَّم إن شاء الله!

.... مـات لتَنفُذ الأقدار!» فلما أذن الله بانصرافه... تكلَّم ابن سَـهْل إلى الأمير وقال له: «أنتَ على..........»[1].

«..... * [ق ٤٩ أ] نحـن بحـال لايرضـى عنَّا فيه لا رعيَّةٌ ولا جندٌ؛ وفى هذا الفسـادُ والقَطعُ. فقال لى ابن القُلَيْعيُّ: «إن تُعِنْ عليك الجُندَ، استَنْجَدْتَ من العدوة من يغنيك عنهم. وَدَعْنى ورأيى بعد إشراكى مع ابن سَهْل، ولا عليك من حيث يقوم لك المال!» .

فرأيتُ أمْراً مُعَمَّى ومستأثراً به دوني، مع ماكان ينطق به لسانُه أبداً من الوعيد، والتَّهْديد عند أصْدِقائه ومَنْ ينقل ذلك إلىَّ عنه أنَّه يقول: «واللهِ لا أُبْلِغَنَّ من حَفيد باديس ما كان يبلغ جدُّه مِنِّى ومن غيرى!» يسـرح بذلك لقلَّة تحفُّظه وإرسـاله لسـانه، ولاحْتِقارِه لنا واحتياجِنا إليه. فزاد ذلك الجُنْدَ قَلَقاً، وهمُّوا بالانتقال مُجْتَمِعين على ذلك.

فلمَّا بصرتُ هذه الحالة، قلتُ في نفسـي «أنا بسـبيل، إن استَفْسَـدتُ إلى الجُنْد، وهم جَناحـاَى، أن بقيـتُ وحدى مع يَرُومُ خَلْعـى. فالأوْلَى على كلِّ حال أطِّباؤهم، واسـتِصْلاحُ مافسـد من أنْفُسـهم؛ وإسْـخاطُ ابن القُلَيْعيّ وحْدَهُ واجبٌ فى رَضَى عامَّة عبيدى وأجنادى.» فجمَعْتُهـم بمحضره، وأعْلَمْتُهم أنِّى راجعٌ عن ذلك المذهب، ورادٌ عليهم إنْزالاتهم. فقام الكلُّ على ابن القُلَيْعي، وهمُّوا باخْتِطافِهِ من بَيْن يدىَّ لولا إمساكى لهم؛ وخشيتُ مع هذا عليه أن يقتلوه، فتكون شهرةً وعقوقاً، وينجرّ الأمر إلى غير المحمود. فَقُلْتُ لهم: «أنا أكفيكم أمْرَه!» وأمَرتُ بثِقافه على أجمل الوجوه فى بَيتٍ بقرب من القصر؛ وكان تحت برٍ وإكرام، وأنا فى ذلك أعْتَذِرُ إليه من قيام العامَّة، وأعِدُهُ بالانطلاق عند إطفاءِ النائرة، كالذى صَنَعْتُ.

فلمَّـا توطدت الأحوال وقـرَّت قرارَها، أمَرْتُ بإخْراجه. وأنْهَيْتُ إليه أن يكفَّ لسـانَه، وَيدَعَ فُضولَ القَوْل والعَمَل إلاَّ فيما يَعْنِيه ويُشـاكِل طريقته. فقال لى: «نَعَم! أناَ ألتَزِم الرَّوابطَ، وأسْـلُكُ سـبيلَ العافيـة إن شـاء الله!» فلم يكُـنْ إلاَّ أن انطلـق، وطار إلى أميرِ المسـلمين

---

(١) خرم نحو نصف صفحة فى الأصل.

بالشكوى، * [ق ٤٩ ب] وزادَ فى الطين بَلّةً. فقال لى الجُنْد: «لو أنّك أمْسَكتَه، لم يُهَيِّجْ عليك النار! وسَتَذُمُّ عاقِبةَ انطِلاقِه!».

٥٧ - سيرة الجند مع الأمير فى ذلك الحين. تشييد الحصون

وأرانى جميعُ الجنْد من التَّأتّى والانقياد والمُناصَحة ما حسبتُ أنّهم يُقاتِلون عنّى الدَّجّال. فسررتُ بهذه الحالة، واطمأنَنْتُ إليها، وقلتُ: «هؤلاءِ أُمّةٌ لا يـرَوْن بى بديلاً لإنْصافى لهم ورَغْدِ عَيْشهم معى؛ وهُمْ قد رأوا جُنْدَ العِدْوة، وأنَّ أقلَّ عَبْدٍ لهم أغْنَى من غيرهم، وأصْلَحُ حالةً. فلا يمكن استبدال الأدْنَى بالأفْضَل!» ثُمَّ عَلِمْتُ قيـاسَ المَغاربة أهلِ الحصون، وعَلِمتُ ما هم فيه من الخير؛ ولم نَظُنَّ قطُّ أنَّ أحَدَهم يبيع أيّامى. وإنّما وَجَسَتْ نفسى من الرعيّة لطمعهم فى حطِّ المَغَارِم، وللذى شاع من الزكاة والعُشُر عند المُرابطين. فقلتُ: «إنَّ بهذه العِقْبان التى على رؤوسها، لا تجترئ على شىءٍ! وإذا تثقّفت المَعاقِل، كان أمْرُ الرعيّة يسيراً.

وكَمْ عَسَى يستطيع الجَيْشُ القادِمُ على أن يَعُمَّ جميعَ البلاد ؟ ومُحاولةُ مَعْقَلٍ واحِدٍ منها تطول، وتَحْدث فى خلافة أحْوالٌ.».

فصرفتُ وَجْهَ اهْتِبالى إلى تشييد الحصون وبُنْيانِها، وإعدادِ ما يُصْلحها لإحْصارٍ إن كان. فلم أدَعْ وَجْهًا من وجوه الحزم إلّا وفعلتُهُ: من إقامة الأجباب، وإعداد المَطاحِن، وأنواعِ العُدَد من التِّراس والنَّبْل والرَّعادات؛ وجميع الأقوات؛ وقَلَعْتُها من القُرَى؛ وأعْدَدتُ لكلِّ حِصْن قُوتَهُ لأزْيَدَ من العام. وفعلتُ أكثرَ من ذلك فى المدينة حَضْرَتى، ما أسْتَغْنِى عن تحديده لاشتهاره.

وقلتُ: «ليس من المُمْكِن أن يتعرَّض أميرُ المسلمين أحَداً من سلاطين الأنْدَلُس إلاَّ بعد إبْرامه لأمْرِ الرُّومىّ! ولابُدَّ عند مُناظَرتهم من فَرَج: إن غلب المُرابِطُ، لم يَفُتْنا الدخولُ فى طاعته، ولا أَسْدَيْنا إليه ما تُذَمُّ عاقِبَتُهُ أكثر من الاحتياط على بلادنا والمُداراة عليها؛ «فلاَ الحِمارُ سَقَط، ولا الزِّقُّ انْخَرَقْ!» نَحْنُ مُدْرِكون: لايَنْبَغِى تقديم يَدٍ سيِّئةٍ إليهم. وإن غلب الرومىُّ، كنّا منه على حَذَرٍ، وقد نفعنا * [ق ٥٠ أ] ما أبْرَمْناهُ من هذا البُنيان والتشييد، واتّخاذ العُدَد؛ فَسَيكون بذلك للمسلمين حِمايةٌ وانجرارٌ إلى غَدٍ، إذ البُنيان من المُرابِط لا ينفع!».

ولذلك أعْدَدنا المُنَكَّبَ: إن تَغَلَّبَ الرُّومىُّ، فأكون على البحر متّصِلاً بالمسلمين، نُدافِع منها جُهْدَنا، إلى أن نُضْطَرَّ إلى الجواز وطَلَب السلامة بحُشاشة أنْفُسنا ونُتَفٍ من أموالِنا. فشيَّدتُها لذلك، كالذى شهر عنّا.

والجاهِلُ لا يدرى ما أوَّلُ هذا ولا آخِره، إلّا ويخبط [خَبْط] عَشْواء: فكلٌّ يتكلّم على شهوته. ولم نَعْتَقِدْ فى أمر المُرابِطين – يعلم الله ذلك – صَدَّهم عن جهادٍ، ولاتَظافُراً مع أحَدٍ عليهم، ولا أرَدتُ بهم شيئًا من مساءَةٍ نُسِبَتْ إلينا. أكثَر من أنّى جَزِعْتُ الجزع الشديد ممّا تقدّم ذِكْرُهُ من تلك المعانى التى أبْصَرْتُها، وماجرى على ابن رَشِيق، مع هَلَعِى لذلك، وتمكن السوداءِ مِنّى، وسوءِ الظنّ مع معايَنة اليقين.

فقلت: «مادام تَتَلَقّى الفِئتان، نخشى حملة السيل على هذه المدينة: فتَحْصِينُها أوْلَى، ولن يُضِرَّ ذلك» فمتى دعانى أمير المسلمين إلى إعْطاءِ عسكرٍ أو مالٍ، أو ما أشبه ذلك ممّا يَجِبُ من مُشارَكَتِهِ وإنْجادِهِ، لم نتأخَّرْ عنه، فتقيمَ على نفسي الحُجَّة، وتجلب إليَّ المَضَرَّة إن فعلتُ غَيْرَه؛ غَيْرَ أنّى، متى دعانى الخروج إليه بنفسي، تَعْتذِر وندافع ذلك جهْدى. فعسى [أن] يتركني ويقبل عذري؛ ومتى لم يقبل لى عذْراً، نعلم أنه يُريد إخراجَ أمْرى إلى حدود الفعل؛ فهو إذاً عليّ متَعَسِّفٌ لكلام الأعداءِ والكذب، فلابُدَّ لى عند ذلك من الاحتياط على مُهْجَتي والتحصين على نفسي، ونجعله إذ ذاك كسائرِ مَنْ يُريدُ إخْراجى من السلاطين؛ وَلِى مَعَهُ الله، إذا لم أنْوِ به سوءًا، ولا واسَيْتُ عليه أَحَداً، ولا صَدَدْتُه عن جِهاده. فبأىِّ شيءٍ يتَسَبَّب إلىَّ إلاّ أن شاءَ التذنيب مع القدرة؟ فلا طاقة لى بذلك، *[ق ٥٠ ب] كالذى صَنَعَ إنسانٌ دَخَلَ على بعض الملوك، وقد أعَدَّ لكلامه جواباً، فلمّا خُرِجَ إلى الثقاف، سُئِلَ عن إعدادِه الجواب وزَعْمِه أنَّ ذلك نافِعٌ له؛ فقال «لكلّ كلمةٍ وجدتُ جواباً إلّا لقَوْلِهِ: «خُذُوهُ!» فلم أدْرِ ما أقول فيها؛ فوَكَّلْتُ الأمر إلى الأقدار!».

وكُنْتُ، أيّامى تلك، بَيْنَ الرجاءِ والخَوفْ، إلاً أنى واثِقٌ بكلِّ من معى من رجالى وخَدَمتى أنهم لايغدرونى. فقَوِيَتْ نفسى لذلك بَعْضَ القوَّة، مع ماكُنْتُ أعْدَدْتُهُ.

٥٨ - معاقدة عبد الله مع ألبرهانش وكيل ألفونش السادس

ولما حان انصرافُنا من لِيِّيط، كلّمْنا أمير المسلمين فى عَسْكَرٍ يَتْرُكه عندنا بالأنْدَلُس، خَوْفًا من الرُّومىّ أن يَكْلَبَ عليها، ويَطْلُبَنا بثأر تلك السفرة وغيرها؛ فَلا يكون عندنا بمن نُدافِعُ؛ فقال: «أَصْلِحوا نيّاتكم، تُكْفَوا عَدُوَّكم!» ولم يعطِنا عسكراً. فأيْقَنَّا أنَّ الرُّومىَّ لا يَدَعُنا على هذه الفُرْصة دون طَلَب. كالذى كان. فلم يلبث أن احتفل وأتى طالباً للمال، مُتَجَنِّيًا على من خالَفَه أن يُفسد بلادَه. وعاقَدَ صاحِبَ سَرَقُسْطة ومن يَلِيهِ من الشَّرْق؛ فدافَعوا شرَّهُ ودفعوا إليه ماسلف له عندهم.

وبلغني الخَبر، وزاد ذلك فى غمّى، وعَلمتُ أنّى فيه كَراكِبِ الأسَد: إن أسْلَمْتُ البَلَد، ولا عَسْكَرَ عندى، هُتِكَ، ولم ينجبر لى فيه دِرْهَمٌ، ولم أُعْذَرْ مع هذا؛ ولا يقرُّ المُطالبُ بأن يقول عنّى إنّى ضيَّعْتُه أو سُقْتُ إليه العدوَّ، كالذى رأيتُ وسمعتُ قَبْلُ عن ابن رَشِيق - وخسارةُ بَلَدى زائدةٌ - ولا نقيم أَوَداً بذلك لكلّ مانُحاوِلُه من الغزو كلَّ عام وضيافات المُرابطين؛ فتجتمع عليَّ الخسارة من وَجْهَيْن. وإن واسيتُ القَوْمَ وأصْلَحْتُ على نفسى، قِيلَ: «قد عاقَدَ الرُّومىَّ!» ويُشْنَعُ عليَّ مالم أفْعَلْ، كالذى كان. فلم أنْجُ ممّا توَقَّعتُ للقَدَر المُقْضِى.

وكان ألْبَرْهَانِش زَعِيمَ جِهات غَرْناطة والمَرِيَّة؛ وكان ألْفُونْش قد وكَّلَه أمْرَ الجِهَتَيْن، *[ق ٥١ أ] من إنفاذِ أمْرِه فيها لفسادِ على مَنْ تعذَّر له عِنْدَه شيءٌ، ولقَبْض مالٍ وتَوَسُّط ماينفعه فيها. فأرسل إلىَّ أوّلاً عن نفسه. يُنْذِر بدخول وادى آش، وأنّه لايَرُدُّه عن ذلك إلاّ الفِداء لها. فقُلتُ فى نفسى: «ومع مَنْ أتّقِ رَأيَهُ أىُّ مقدرةٍ بنا على مُدافَعَتِه؟ لا عَسْكَرُ تُرِكَ لنا نُدافعُ به! فكَمْ يأْخُذ فى هذه

النُّصْبة من أَسْرَى المسلمين! وكَمْ يفسد فيها من الأموال! ما لايعشر قيمة ما يُعْطَى كالذى عَهِدْناهُ مِنْهُم! اللَّهُمَّ لو كان، ونَفَّذ ذلك ويبلغنا عن أَسْرَى المسلمين عندهم! أَلَيْسَ من الصلاح إفداؤهم[1] بما عزَّ، فنَحْنُ جُدَراءُ أن نفعل ذلك قبل رِحْلَتهم دون فسادٍ فى البلد! ونَحْتَسِب ذلك لله تعالى، وهو العالِمُ بالضمائر! فإنَّا لو فَعَلْنا ذلك أَشَرًا وبَطَرًا، وعندنا بمن نُدافع، لكان فيه الحُجَّة علينا!»

فاجتمع رأيُنا على إرضائه باليَسير، مع مُعاقَدَتِه ألا يقرب لنا بلداً بعد أَخْذ هذه الدفعة، فارتبط إلى ذلك. فلما حصلَتْ عنده، قال: «ها أنا قد صَلُحَ جانبى! والأَوْكَدُ عليكم أَمْرُ أَلْفونْش، الذى هو على الحَرَكة عليكم وإلى غيركم؛ فمن أَنْصَفَهُ نجا، ومن حاد عنه، فسَلَطنى عليه! إنَّما أنا عَبْدُه، لابُدَّ من إتيانِ مرغوبه، والوقوف عند أمره. ولا ينفعكم هذا الذى أعطيتمُونى إن خالَفْتُموهُ. وليس بنافِعٍ إلا فيما يخُصُّنى دون رَئيسى إن حدَّ لى ضِدَّه!» فعَلِمنا أنَّ قوله حقٌّ يقبله العقل. فقُلْنا: «لايمكنُ أن نوَجِّهَ نَحْنُ إليه ونبدأه، فنُوقظه لأَكْلِنا! ولكِنْ، متى أَرْسلَ يأذن بذلك، سنَعْتَذِرُ إليه؛ فعسى [أن] يقبل رَغْبَتنا، ولم نفتح له باباً فى إعطاء شىءٍ إلا أن يزيد طمعُه! أَكثرُ من تَلَوِّى القول، عسى من هنا إلى ذلك الوقت، [أن] يأتِى عَسكَرٌ يُكسَرُ به؛ فلا يعبأ بقَوْله. وإن لم يأتِ أَحَدٌ، لم نكُنْ نُقَدِّم إليه قبيحاً، فنشقى عند ذلك.» .

ودافَعَنا الأَمْرُ عند أَلْبَرْهانِش، وأنَّه لا سبيل إلى أن نعطيه[2] شيئاً، * [ق ٥١ ب] واعتذَرْنا بالـمُرابطين وغير ذلك ممَّا لزمنا من النفقات عليهم. فسَكتَ عنَّا الخِنْزيرُ، وأرسل إلى صاحِبِهِ، كالذى يلزمه من التخدُّم له، وسأله أن يوجِّه لى رسولاً يطلُب جِزْيَته؛ فإن انصرف دون شىءٍ، كان هو الـمُنْتَقِمَ من جِهاتِها.

٥٩ - التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونش السادس وعقد اتفاق جديد معه

وتأهَّبَ أَلْفُونْش إلى الحَرَكة، وقدَّم رسولَه بين يدى حَرَكته. فلمّا صحَّت عندنا، أتانا منها الـمُقيمُ المُقعِدُ، ولم نَدْرِ أين الخيرة: إن كان فى رَفْضِ البلد وتَرْكِهِ ليَعْبَثَ فيه، أو مُدارَاتِهِ بما تيَسر. ووقعت من ذلك هَيْبةٌ فى الناس ورجَّةٌ، حتَّى بلغ من الجزع أنَّنا لم نُصَدِّق أن يقبل مِنَّا الـمالَ دون الـمُلازَمة لنا، طالباً لإِحْنَةِ لِبَيط ومُعاقدة الـمُرابطين.

وطَمِعْنا أن يقنعَ رسولُه باليسير؛ فقال لى: «لم آتِ عن ذلك كلِّه، إلا أن تعطيه مافاتَهُ عنك من جِزْيَة ثلاثة أعوام بثلاثين ألفاً! لايُنقص منها شىءٌ؛ وإلاّ، فها هو مُقْبِلٌ! والذى تقدر عليه، فاصْنَعْ!» فرَوَّيتُ الأمرَ فى نفسى، ورأيتُ أن التعاطِيَ حماقةٌ لاتفيد، وقُلتُ: «إن أخذتُ هذه من الرعيَّة، ضجَّتْ وشَكتْ، ويكون مُقدَّمتُها بمَرُّوكُش[3] شاكِينَ، يقولون:

(١) أصل: «أفداهم».

(٢) الأصل: «نعطوه».

(٣) كذا فى الأصل، عوض «مراكش»، وليس بتصحيف، إذ عبارة «مروكش» كانت تستعمل دون غيرها أيام المرابطين مؤسسى هذه المدينة؛ وهى التى انتقلت إلى اللغة الإسبانية دون عبارة «مراكش» واسمها بالأسبانية إلى اليوم Marruecos.

«أخَذَ أموالَنا وأعطاها للنصارى!» ولكِنْ لهذا الوقت يحتاج الإنســانُ ما ادّخَرَ ليَصُونَ به بَلَدَه وعِرْضَه. وأنا جَديرٌ أن أُعطى ذلك من بيت مالى، بحَيْثُ يسـلم البَلَدُ، وبحَيْثُ تشـكر الرعيَّة بمدافَعةِ عدوِّها دون تكليفها شـيئًا، ولا تَقَع الشُّـنعة!» ففعلتُ ذلك، وأرسـلتُ إليه الثلاثين ألفًا، لم أرْزأ أحَداً فيها دِرْهَمًا.

ورأيتُ مع ذلك أن أُجَدِّدَ معه عَقْداً ألاَّ يعترض لى بَلَداً، ولا يغدرنى بعدها، خوْفًا أن يَقْتَلِب علـىَّ؛ فأجـاب إلى العَقْد. وقُلْتُ فى نفســى: «إذ لابُدَّ من دَفْعِها، فبالعَقْـدِ أوْلَى. فإن حُوِّجْنا إليــه، وجَدْناهُ، ولم يضرَّ؛ وإن اسْــتُغْنِىَ عنــه، كان مكانَه سُمْرُ القنَــى والبيض الرقاق، إن تَدارَكَنا * [ق ٥٢ ب] الله بعسكر يدفعه؛ والحَرْبُ خُـدْعَةٌ! «وإذا لم تَـغْـلِبْ فأَخْلِبْ!» .

فأجـاب إلى تلك الـمُعاقَدة، حِرْصًا على أخْذِ الـمال، ونـحْنُ لانشـكُّ أنَّه يغْدر، كالخاطِر لنفسـه للضُّرُورة التى لاسـبيل إلى بـوَاها. وقال لى عند ذلك رسـولُه : «يقول لك ألْفُونْشُ: «إن كُنْـتَ تُريـد تُخَلِّطُ مع هذه الـمُعاقَدة اسـتعانةً به على شـىءٍ من بـلادك التى عند ابن عَبَّـاد، فهـو يجدُ لك فيها فى وجهتـه هذه.» فأَجَبْتُهُ: «إنِّى لا أُعيـنُ على مُسْـلِم أحَدًا ! وإنَّ الـذى دعانى إلى هذه الـمُعاقدة الـمُدافَعةُ على بَلَـدى وأهْلِ مِلَّتى. فَإنْ وَفَّيْتُمْ بذلك، فهو الـمُـرادُ الذى إليه قَصْدُنــا.» وكان من نيَّته أن يخلط الفِتْنة بَيْننا وبَيْن ابن عَبَّاد، ليَجِدَ بذلك الســبيلَ إلى بلاده، ويقوى عليها بأموالنا، ويتسبَّب إلى طَلَب كَثير من أموالنا، إذ كانتْ تلك الثلاثون ألفاً على وَجْه الدَّيْن للمُســالمة فقط، وإنَّما أراد استِئْنافَ عَمَل. وكان مع هذا لا يَثِقُ بِقَوْلنا[1]، ويحسـب ذلك مِنَّا خُدْعةً. وقُلْنا له: «إنَّا مُغَرَّرُونَ فى هذه الفَعلة مَعَكَ، وسَـتُدْركُنا تباعاتُهــا عند الـمُرابطين، ونُطالب بذلك!» فقال، تسـهيلاً لأخْذ ماله : «متى أدْرَكَكم فى ذلـك منــه طَلَبٌ، فعَلَىَّ الذبُّ عن مدينتكم.» فأَجَبْناه: «بـل، هو يرى عذرنا؛ وقبولُه وعطْفُهُ أرْجَى عندنا من معونتكم.».

فانْفَصَلَت الحال على ذلك؛ وقال (لى رَسُـولُه): «لابُدَّ له من تدويخ سـائر البلاد مِن نَظَر ابــن عَبَّــاد وغيره، إن لم يعطِهِ! فقُلْتُ: «هذا أمْرٌ لا يسـألنا الله عنه يـوم القيامة! كلُّ أحَدٍ مسؤولٌ عن رعيَّته! نَحْنُ قد احْتَلْنا على من قلَّدَنا الله أمْرَه، وفَدَيْنا أرواحَهم وأموالَهم! ومَن له حاجةٌ مِنْ سـائر الـسلاطين يُقابل أمْرَكم حَسَبَ مقدرته، إن شاء بفداءٍ أو قِتالٍ. لا نتكلَّم نَحْنُ فى شــىءٍ من هذا، ولا ينبغى لنا؛ ولا أنْتُم واقِعون تحت أوامرنا، فنَهاكُمْ عن * [ق ٥٣ أ] ذلــك. ونَحْنُ لم نتخلَّص من التحصين على مايخصُّنا إلاَّ بعد كَدٍّ؛ وماكَدَّنا، فشــأنَكم ! وأنا بَرِىءٌ، لا أغْمِسُ فى ذلك يداً ولا لساناً» .

ولم أجِد وَجْهًا نرجو به بعضَ الدفاع عن إخواننا المسلمين أكْثَر من مُخَاطَبة الـمُعْتَمِد، نُعلمه بجليّـة حالنا معهم، وماذكروه من إيطاءِ بلاده، ونُنْذِره بذلك. لِكَىْ يقلع، ويدرَّع الحزم، ويُقدِّم للأمر أهْبَته.

---

(١) أصل «يثيق قولنا» .

٦٠ - تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله يبرِّر مسلكه

ثمَّ خاطَبْنا أميرَ المسلمين، ننصُّ عليه جميع ما وقَعَ ما دَفَعَت الضَّرُورة إليه، وأنَّ الحاضرَ أبصَر مِن الغائب، ولو الحال يقتضي بمَطْلِها، ولو بمقدار وصولِ الخطاب بمشورته سلامةً للمسلمين، لم أقْدِمْ شيئًا في ذلك ولا أخَّرْتُه إلاّ عن رأيه، كالذي يلزم، غَيْرَ أنَّ الحفرِ كان أشدّ، لم أرَ التغريرَ بالمسلمين، وإنَّ الانتقامَ منهم مُدْرَك بحول الله على يديه. ولم نشكّ في أنَّ الجواب يَرِدُنا بالشكر على مانَظَرْناهُ وسَدَّدْناهُ، لاسيمًا إذ كان الفداءُ من عندى ولا أكَلّف فيها مُسْلِمًا دِرْهمًا.
فوردني جَوَابُه مع ما أمْلَيَتْ نفسُه من الطَّلب لي، وصوَّرتْ عنده الأمور على غير حقائقها، بما زاد في جزعي، يقول «أمّا مُدَاهَنَتُك وقَوْلُك الباطِل، قد عَلِمْناهُ! وسنعلم عن قريب كيف ترضَى الرعيَّة، وماتَصْنَعُ إذ زَعَمْتَ أنَّك نظرتَ لها. ولا تُسَوِّف: فإنَّ هذا قريبٌ غَيْرُ بعيد!»
فلم أقْنَطْ مع هذا، وقُلْتُ، عند الحقائق وتِبْيانِ ما وقع، على لسانِ رَسولٍ: «يزيلُ عن باله كلام الأعادى! وهذا من بَغْي ابن القُلَيْعِيّ وأبي بكر بن مُسَكَّن! فإنَّهم لا ينقلون إلا على شهواتهم!» وكان أبو بكر بن مُسَكَّن قد بلغ من طغيانه عليَّ، وسَبِّهِ لي، ورَجائِه[1] في أن يسهمه أمير المسلمين من البلدِ ما يكون قِرْنِي أو أكْثَرَ؛ فإنَّه انتمَى إلى بنى زيرى، وجعل يهذى بذلك ويفتَخر به، لايَرَى لأحَدٍ عليه فضلاً، ويسعى في نقض مانبرم من أحوال الدولة مالايتمُّ معه مُلْكٌ ولا أمْرٌ. فجعلتُ الذنب فيه سَوَاءً كما في [ق ٥٣ ب] ابن القُلَيْعيّ، إذ مقالتُه لا تطفى ما أشْعَلَ ابن القُلَيْعيُّ لو أراد الخيْرَ، كما أنَّ تَرْكَه لاينقص ولا يفتر عن ذلك. فَجَعَلْتُ الهمَّ فيهما هَمًّا واحِداً.

ولمَّا تشدَّدتُ عليه، وأمرتُه بالكفِّ، أحرق، وهرب دون نَفْيٍ، ومضى قاصِداً إلى المُرابِط، يفرى فيَّ، ويَسْعَى عليَّ، ويكذب، ويصوِّر الأمور على غيرِ وجوهها. فتكرَّرَتْ مُخاطَبتي على أمير المسلمين، نبيِّن له جميع ما وقع، ونشكو بما دهيت به من هؤلاءِ الفَسَقة. وهو، في ذلك كلِّه، لايراجعنى إلاّ بالشِّدَّة، وقبولِ قولهم عليَّ. فبقيتُ تلك الأيَّامَ على أسوأِ حال، لا ندري أين الخيرة، ولا كيف التخلّص.

وساءَ ظنُّ المُعْتَمِد بي في دخول النصرانيّ إلى بلاده، وكفِّه عن بلادنا؛ واعتقد أنَّ ذلك عن اتِّفاق؛ ولو كان عن اتِّفاقٍ، لأدَّيْتُ عليه مالاً فوق الجِزْيَة! فليس لهم إلّا بنى الكِرَى غير منطاعين لِقَوْل أحَدٍ. ولم يأتِ عسكر المُرابطين إلى إشبيلية إلَّا والبلد قد أفسد.

والله تعالى يعلم أنِّي ما واسيت في تلك النَّصْبة، ولا يسألني الله عن كلمةٍ طعنتُ فيها على مُسْلم. فاتَّفقت الأقاويل عند أمير المسلمين بكثرة الطلب؛ ولو أنِّي أريد ذلك، والانحياشَ إلى النصَارى، كالذى قِيلَ، لم يَصِل المُرابطون إلى سَبْتة إلّا ومدينة غرناطة مَمْلُوَّةٌ منهم؛ وكنتُ أستطيع على ذلك، وكانت لي في المدَّة برهةٌ وفسحةٌ طويلةٌ؛ إلّا أنَّ الأعمال بالنيَّات، وتلك

---

(١) أصل: «رجاه».

القالة إنّما كانت سببًا للذى قُدِّر؛ ولو أنّ قضيّتى تُستَوضَح، لَوُجِدَ فيها ما لا مطعنَ فيه، ولا مَقالٌ بيِّنة، ولا إســرارٍ فى مَيْلٍ على مُسْلم، ولا إدخال داخِلةٍ. وكيْفَ يصحُّ هذا قِبَلَنا، وأوّلُ سَيْفٍ سُلَّ على الروم إنّما كان من قِبَلِنا، وهى الوقيعة المشهورة بالنِّيبَل، من طاعَتنا، فى حين تطرُّق النصارى إليها على حين غَفْلةٍ؛ ووافَقَ ذلك أوّلَ ظهور المُرابطين ووُصولَهم سَبْتَةَ؛ ووَرَدَنا إذ ذاك [ق ٥٣ ب] رسول ألْفُونْش مُعْتَذِراً من الأمر؛ فصرفْناه عن الطريق، قطعاً له، وإيثاراً لأمير المسلمين. وعند الله تجتمع الخصوم!

* * *